

لا تكتسب فضيلة بتحطيم فضيلة اخرى

إن الشيطان يتضايق من فضائلك الثابتة التي صارت وكأنها من طبيعتك، لذلك يحاول أن يحطمها بكافة الحيل. ومن بين هذه الحيل أن يقدم لك فضيلة اخرى جديدة عليك ليست لك بها خبرة، لكي تحل محل الفضيلة الأولى الثابتة. ومن أمثلة ذلك:

١- إن كنت تحيا في وداعة وهدوء ودمائة خلق وسلام قلبي. ويريد الشيطان أن يفقدك كل هذا. فماذا يفعل؟ أنه لا يستطيع أن يذم الرقة والوداعة، أو أن يقول لك "أترك طبعك هذا المحبوب من الكل"... ولكنه يصل إلى غرضه عن طريق الإحلال، ويقدم لك فضيلة بديله، دون أن يشعر أنك أنها بديلة.. وكيف ذلك؟

* يدعوك باسم الحماس في نشر البر، أن تساهم في إصلاح المجتمع، وأن توبخ وتنهر، وتكشف أخطاء الآخرين لكي يخلجوا منها ويتركوها! وتظل تفعل هذا بغير حكمة. وأنت لا تعرف قدر من تتناوله بالنقد، ولا الأسلوب المناسب، ولا ما هي ردود الفعل، ولا بأى سلطان تفعل ذلك. وهكذا تسلك في طريق القسوة والتشهير بالآخرين، وفي اسلوب السب والقذف. وتسود صورة الغير في نظرك، وتتحول إلى قنبلة متفجرة تقذف شظاياها في كل اتجاه...

* وهكذا تفقد وداعتك ورقتك. وتكره الناس ويكرهونك. ثم ما تلبث أن تتعب من هذا الأسلوب الذي لا يتفق مع طباعك، وتحاول أن تعود إلى حالتك الأولى، ولكنك لا تجد قلبك نفس القلب، ولا فكرك نفس الفكر. بل ترى أنك قد فقدت بساطتك ونقاوة فكرك، كما فقدت حسن علاقتك بالآخرين وفقدت أمثولتك الصالحة التي كان ينتفع بها غيرك.. وإذا بالشيطان قد أطمعك في فضيلة لا تعرف كيفية السلوك فيها، وافقدك فضيلتك الأولى! فما احتفظت بالأولى، ولا ربحت الثانية. وصرت في بلبلة...

* ينبغي أن تدرك تمامًا أن أعمال الخير لا يهدم بعضها بعضًا، وأن كل إنسان له شخصيته التي قد تختلف عن غيره، وقد لا يناسبه ما يناسب غيره. وليس كل أحد له سلطان أن يوبخ وينتقد. كما أنه ليس لكل معرفة كيف يستخدم حسنًا فضيلة جديدة عليه.

٢- مثال آخر للفضيلة التي يحاول بها الشيطان أن يضيع فضيلة اخرى:

إنسان يعيش في نقاوة القلب، بعيداً عن العثرات الجسدية. فهو محترس تماماً، لا يقرأ قراءات ولا ينظر إلى أية مناظر تُعثره. ولا يختلط بأية خلطة خاطئة، ولا يستمع إلى أية أحاديث طائشة. بل يحتفظ بأفكاره نقية لا تدخل إلى قلبه شيئاً غير طاهر.. هذا الإنسان يريد الشيطان أن يحاربه، ولا يستطيع أن يقدم له شهوة مكشوفة، لأنه لا بد أن يرفضها. فماذا يفعل؟

* يفتح أمامه الباب ليكون مرشداً روحياً يقود الشباب إلى الطهارة. إذ كيف يعيش في حياة الطهارة وحده، ويترك أولئك المساكين يسقطون كل يوم دون أن يقدم لهم مشورة صالحة تنقذهم مما هم فيه! ويقتعه بأن مَنْ رَدَّ خَاطِئًا عَنْ ضَلَالِ طَرِيقِهِ، يُخَلِّصُ نَفْسًا مِنَ الْمَوْتِ، وَيَسْتُرُ كَثْرَةً مِنَ الْخَطَايَا (رسالة يعقوب ٥ : ٢٠). ويظل يثير الحماس في نفسه لكي يقبل هذه الخدمة الروحية الحيوية، وأن يرشد الذين يأتون إليه...

* ثم تأتي الخطوة التالية وهي أنه لكي يكون إرشاده عملياً، لا بد أن يستمع إلى مشاكلهم وأخطائهم. ويظل أولئك يصبّون في أذنيه أخبارهم وقصص سقوطهم. وقد يقولون كل شيء بالتفاصيل. وربما يكون في ما يحكونه ما يعثر.. ويستمع (المرشد) الطاهر إلى كل ما كان يبعد قبلاً عن سماعه، ويعرف ما كان يجب مطلقاً أن يعرفه. وكل واحد من أولئك يقدم صورة جديدة أو صوراً عديدة من الخطأ...

* وعن طريق الإرشاد يجد صاحبنا عقله وقد امتلأ بصور دنسة. وأصبح يعرف أشياء صارت تشوّه طهارة تفكيره، وتدنسه بأخبار وقصص مجرد ذكرها قبيح. وإن لم تعثره وتغرس فيه إنفعالات خاطئة، فعلى الأقل تنجس فكره، وكأنه قد قطف أثماراً غريبة من شجرة معرفة الخير والشر..!

* فإن حاول أن يبتعد، يُقال له: وما ذنب هؤلاء الشبان؟!!

وقد يكونون قد تعلقوا به واستراحوا إلى إرشاده. وربما يتعبون ضميره بأنهم – إن تولى عنهم – قد يرجعون إلى خطاياهم! ويلحون عليه أن يظل يسندهم حتى يقفوا على أرجلهم.. ربما هو يكون قد رسبت في ذهنه – ولو بالسمع – صور لم ينظرها من قبل، وربما يسقط بالفكر، ويكون الشيطان قد نجح في اسقاطه وافقده نقاوته الأولى.

٣- وقد تأتي حيلة الشيطان في عرض الإرشاد بصورة اخرى، يقدم فيها – لا أخباراً تدنس القلب – بل شكوكاً تتعب العقل...

إذ يكون القلب في بساطة الإيمان، وتكون قراءاته كلها روحية تعمق صلته بالله. ثم يأتي من يطلبون معاونته وارشاده في شكوك عقيدية أو إيمانية تتعبهم. وتتوالى الشكوك من هنا وهناك لكي تجد لها حلاً، ويبدأ إيمان هذا (المرشد) أن يتحول شيئاً فشيئاً من القلب إلى الفكر والبحث العلمي. وقليلون من يتقنون الأمرين معاً...

ويجد أن الشكوك تتكاثر عليه، وليست له موهبة الرد عليها..

* وينبغي أن نعرف أنه ليس كل أحد له القدرة على الإرشاد. فالذين لهم هذه الموهبة، لا يصيبهم ضرر سواء من المشاكل الروحية وسماع الخطايا الجسدية، أو من المشاكل العقائدية وسماع الشكوك.

ولكن حيلة الشيطان الماكرة هي أنه يقدم الإرشاد للذين ليست لهم الموهبة، فيصيبهم منه ضرر. كما انه يقدم لهم ذلك بأسلوب ضاغط، يشعرهم به أنه ضرورة ملحة وأنه واجب مقدس..

وما أسهل على القلب المتضع أن يرد قائلاً "ولكنني لا أعرف. أنا الذي لم أستطع أن ارشد نفسي، كيف يمكنني ارشاد آخرين؟!"